كيـــف سيتغيـــر العالـــم سنـــة ٢٠٠٥؟

جيرارد باكر
ترجمة: نوال لايقة

ولكن، إذا نظر بوش إلى الفترة الرئاسية الصعبة التي تنتظره والمخاطر المحتملة التي قد يواجهها، سيجد أن ذلك التعبير هو وصف مناسب ينطبق على فوزه في الانتخابات الرئاسية للمرة الثانية.

فالمشهد بالنسبة للرئيس بوش، بدءاً من الحرب على العراق وصولاً إلى التحديات المتمثلة بإيران وشمال كوريا، وانتهاء بالعلاقة مع أوروبا وأجندته الداخلية المتعلقة بالإصلاح الضريبي، ليس مشهداً مشجعاً. والتاريخ أيضاً يشهد على أن الفترات الرئاسية الثانية قلما تكون فترات ناجحة.

ولكن، حتى نقاد جورج بوش عليهم أن يعترفوا بأن فوزه بالفترة الرئاسية الثانية هو إنجاز عظيم يثير الإعجاب. فالظروف التي فاز فيها الرئيس كانت في غاية الصعوبة والسوء، فقد بدأت سنة الانتخابات الكئيبة بالتفاف الديمقراطيين حول مرشح واحد بدا بديلاً رئاسياً مقنعاً. وتبعت ذلك الأخبار السيئة القادمة من العراق، حيث انفجر التمرد المسلح في المناطق السنية والشيعية في نيسان الماضي، في حين كانت الولايات المتحدة تحاول تحقيق الاستقرار والأمن فيه، ثم ظهور صور تعذيب السجناء العراقيين والاعتداء عليهم في سجن أبو غريب على يد جنود أمريكيين. كما أن الحرب الأوسع على الإرهاب ألقت بظلالها الكئيبة، ولم يتم إلقاء القبض على ابن لادن كما ألقي القبض على صدام.

وفي نيسان الماضي، قام ريتشارد كلارك المسؤول السابق عن محاربة الإرهاب في البيت الأبيض، بنشر كتاب شرح فيه اسلوب بوش في التعاطي مع خطر الإرهاب، ولم يستطع بوش الاعتماد على الاقتصاد في الحصول على المساندة لمواجهة كل ذلك، إذ كان النمو الاقتصادي وخلق فرص عمل جديدة يتم بصورة بطيئة جداً.

إذن، كان فوز بوش في ٢ كانون الأول لافتاً للنظر فعلاً فقد حصل على أكبر عدد من الأصوات لم يسبق أن حصل عليها رئيس مرشح لولاية ثانية، وكان أول مرشح يفوز بأغلبية الأصوات بين أفراد عامة الشعب، منذ عهد والده عام ١٩٨٨، وكان أول مرشح جمهوري يفوز بأغلبية في الأصوات في مجلس الشيوخ والكونغرس منذ ٧٠ عاماً.

وعلى الرغم من أن التحليل المباشر والسريع عزا هذا النجاح إلى التفاف المسيحيين الجدد حول المرشح الجمهوري، فإن الحقيقة كانت غير ذلك. فالرئيس بوش فاز في الانتخابات لأن الناخبين يثقون في قدرته على محاربة الإرهاب، ولأن السيد كيري اتضح أنه لا يروق للأمريكيين.

ولكن خلال أيام من إعادة انتخابه، استمرت الأخبار السيئة التي كانت تهدد بأن يخسر بوش الانتخابات. وهددت مجموعة من الجمهوريين في الكونغرس بمعارضة مشروع لإصلاح الأساليب الأمنية على ضوء التحقيقات في هجمات ١١ أيلول. وأُجبر أحد مرشحي بوش لوزارة الداخلية، برنارد كيريك، على الانسحاب. ومن الواضح الآن أن طروحات بوش الطموحة المتعلقة بالسياسة الداخلية تواجه مصاعب كبيرة الآن، كما أن وعوده بتخفيض عجز الميزانية إلى النصف خلال السنوات الأربع القادمة، سيتطلب مناقشات صعبة مع الكونغرس حول تخفيض الإنفاق على الشؤون الداخلية.

والأهم من كل هذا هو أن سياسة بوش الخارجية مازالت ترزح تحت تأثير الأخبار السيئة القادمة من العراق.

> إن سنة صعبة تنتظر الرئيس بوش. من المرات المشهودة التي أساء فيها جورج بوش استخدام الألفاظ فيها هي عندما وصف الحرب على العراق بأنها (نجاح مفجع). كان الرئيس عندها يحاول شرح المصاعب التي نجمت عن النجاح السريع غير المتوقع للقوات الأمريكية في العراق بعد اجتياح ٢٠٠٣ بوقت قصير.

ستتوقف أشياء كثيرة على الانتخابات العراقية المقررة في نهاية كانون الثاني الجاري. وقد تواجه الولايات المتحدة مجموعة من الخيارات الصعبة حول ما إذا كان عليها أن تعزز وجودها في العراق بهدف خلق الاستقرار هناك أم أن عليها أن تنفض يدها من العراق وتدعه يتقدم، بتعثر، نحو تحقيق درجة غير مستقرة من تقرير مصيره بنفسه.

كما أن الدعوة إلى استقالة رامسفيلد قد يتجدد صداها إذا لم تتحسن الأوضاع في بغداد. هنا أيضاً، تواجه الإدارة الأمريكية خياراً صعباً. هل تتمسك برامسفيلد في منصبه وتجازف بأن تواجه السياسة الأمريكية المزيد من المشاعر العدائية، أم تُقيله من منصبه وتعترف بأن إدارته للحرب كانت سيئة، جزئياً في الأقل.

في مواجهة كل هذا، سيحاول بوش إعادة بناء علاقاته مع حلفائه من خلال قيامه برحلة إلى أوروبا في الشهر المقبل. ولكن مساعديه يعلنون أن غصن الزيتون الذي سيحمله بوش، لن يتعدى الخطاب، وأنه لا يخطط لأية مبادرة واسعة أو كبيرة.

كما أوضح المسؤولون الأمريكيون بما لا يحتمل الجدل، أن الإدارة الأمريكية مازالت تعتقد أن إصلاح السلطة الفلسطينية هو وحده القادر على تحقيق تقدم نحو تحقيق السلام في الشرق الأوسط. ولكن الاقتصاد الأمريكي يبدو بحال أفضل، على الرغم من أن انخفاض قيمة الدولار تقضي على التوقعات الإيجابية لدى الإدارة.

خلال الأعوام الأربعين الماضية، جميع الرؤساء الأمريكيين الذين فازوا بولاية رئاسة ثانية، كانوا سريعاً ما ينزلقون إلى الفضائح، أو إلى مآزق خارجية صعبة، أو مواجهة عائق تشريعي. ويتوقع المحللون في واشنطن أن كل هذا سيستمر ولن يتغير.

لكن السيد بوش سبق أن خالف التاريخ مرات كثيرة من قبل. وهو يدرك أكثر من أي شخص آخر منافع أن تكون قدرات المرء موضع استخفاف الآخرين وعدم تقديرهم.

سيرة رجل.. سيرة وطن

إياد علاوي بين نزاهة الشخصية السياسية العراقية وتجنب أخطاء التاريخ الفادحة

علي عبد العال

> . من المفيد أن يظهر السيد رئيس الوزراء المؤقت د. إياد علاوي على شاشات التلفزيون بهذه الكثافة الإعلامية والخبرية في خضم الأحداث السياسية التي تعصف بالعراق. حضور السيد رئيس الوزراء عبر وسائل الإعلام لا يُعد إلى الآن من الأحداث المملة، إذا لم يكن العكس

إذ لا تزال مادة التشويق كثيفة جدا فيما يخص هذا السياسي الذي يقود دفة العراق وسط هذا البحر المتلاطم من العواصف السياسية ودوامات العنف الخطرة وقراصنة الإرهاب الدولي والأصولي المتشدد إلى غير ذلك من المطبات والمنعطفات الحادة التي تحدث على الدوام في أجواء تنعدم الرؤية الواضحة فيها لتقترب أحيانا إلى درجة الصفر. ولم يكن السيد إياد علاوي لا رجلا ثقيل الظل، ولا سياسيا نمطياً يكرر نفسه كباقي المسؤولين والسياسيين العرب (الرسميين جدا). كذلك لم يظهر التشنج على السيد علاوي أو الافتعال بتقمص شخصية وهمية لا تخصه، كما يحرص بعض من الساسة العرب وفي العالم الثالث عموما لافتقادهم الشخصية الحقيقية التي تنقصهم. كان هو ذاته عندما ظهر في التلفزيون، كما هو نفسه بالضبط عندما طلع علينا للمرة الأولى. أفترض ذلك لسبب واضح وبسيط يتلخص بأن السيد إياد علاوي لن يجني لشخصه الرسمي ولنفسه بصفته مواطناً عراقياً يخوض معترك السياسة منذ أربعين عاما سوى المزيد من المتاعب جراء هذا الظهور الإعلامي بهذه الطريقة المتعجلة والجريئة. هذا الحديث (المكاشفة) إن صح التعبير تضمن تحطيم الأطر التي كان العراقيون حكاما ومحكومين قد اعتادوها حتى الإدمان. وهذا أكثر الأمور أهمية مما يتوق إلى مشاهدتها المشاهد العراقي، وربما العربي بالتالي، والأوروبي بدرجة ما. نقول ذلك ونخص بالقول المشاهد (المحترف)، فضلا عن المشاهد الطبيعي.

الحوار الذي تجريه قناة (العربية) تحت عنوان (سيرة رجل.. سيرة وطن)، وهو أشبه ما يكون بـ (الاعترافات) لسيرة الرجل، أريد لها أن تتم وتصور ضمن أجواء غير رسمية من شأنها بث صورة مغايرة للواقع الحقيقي الذي يجري حاليا في العراق. كأنما الرجل الجالس ليست له علاقة بالحكم. حتى كان يخال لي في مواضع كثيرة أن المقابلة تجرى في بلد ما من بلدان اللجوء، لندن أو باريس أو واشنطن، على الرغم من الإحساس الأكيد بأنها تجرى في العراق وفي بغداد تحديدا. هذه نقطة تؤشر جيدا مكنة هذا الرجل وجرأته الطيبة التي تشبه جرأة الكثير من العراقيين. أجواء أسرية سهلة وحميمة كأجواء البيت العراقي القديم على الرغم من كل ما يحيط بهذا البيت من مخاطر كبيرة تريد هده وهدمه وجعله مجرد أنقاض وعلامة على الخراب والظلام والجهل. تلك الحوارات، ونكتب هنا في حدود الحلقة الثانية، التي اشتملت أيضاً على جوانب غاية في الجدية تساعد على الكشف عن هوية الرجل (رئيس الوزراء المؤقت) الذي يحكم العراق الآن من خلال حكومة مؤقتة هي الأخرى. يبدو أننا مقبلون على القبول بمثل هذه المكاشفات الخاصة بسيرة المسؤولين الذين قدرت لهم الظروف والتاريخ قيادة العراق في هذا المنعطف الحاد والخطر. يطمح المواطن العراقي، في هذه الأيام الحرجة من تاريخ العراق السياسي على وجه التحديد، إلى معرفة هوية وتاريخ الشخصيات التي غيبها شخص الدكتاتور بكل ما يتصف به من أنانية وعقدة الظهور والتبجح عن طريق محو وإزالة الآخر. حتى لم يعد لبقية الجوقة المرافقة له عادة من حضور إلا كحضور الخيال في الأحلام. والسبب الآخر يتعلق أيضا بحب المواطن العراقي للمعرفة والإطلاع والشفافية بعد عهود مظلمة من التعتيم والتزمت الإعلامي الشديد. حتى لو كانت هذه المقابلات التلفزيونية مع السيد رئيس الوزراء تأتي ضمن الحملة الانتخابية الدائرة بوتائرها الحامية في هذه الأيام، فأنها تسهم إلى حد بعيد بإغناء المفاهيم المقبلة للممارسات الديموقراطية بشكل عام.

تنبه المشاهد العراقي إلى عدد من الملاحظات لم تكن مألوفة له في السابق وهو يتابع أخبار الحكومة المنهارة السابقة. أولى هذه الملاحظات هي لغة الخطاب ولغة الحوار. كان حديث السيد علاوي يعتمد اللهجة العامية العراقية المدنية بصفة إجمالية. بعض السياسيين العراقيين المخضرمين أمثال السيد عدنان الباججي والسيد رفعت الجادرجي يمزجان العربية الفصحى بعامية مدنية، أو بدوية عريقة كما يفعل رئيس الجمهورية المؤقت السيد غازي عجيل الياور على سبيل المثال. وفي الوقت الذي ينجح فيه السيد رئيس الوزراء باستخدام العامية العراقية وعاء خصباً وغنياً، فإنه سيتمكن من نقل - محتوى خطابه وحواره وأخيرا رسالته إلى الشعب، وبالتالي يلبي لديه القناعة بأن أفكاره الإجمالية ستصل عبر هذه الأداة (اللغة / اللهجة) مهما انطوت هذه الأفكار على درجة من التعقيد. وفي حين يروق هذا الأمر للكثير من العراقيين (نقصد أداة التعبير) لا يروق بعض منهم ممن يفضلون الطابع الرسمي و(البروتوكولات) العامة المتبعة في الكثير من الدول. من يعود قليلا إلى الوراء ليستذكر خطابات السيد رئيس الوزراء أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكذلك أمام مجلس الشيوخ والنواب الأمريكيين لا يراوده الشك في مقدرة رئيس الوزراء العراقي على ارتجال خطاب ذي تسلسل منطقي فيه قدرة كبيرة على الإقناع وتحريك المشاعر وانتزاع التصفيق الحار للعديد من المواقف والمفاصل الخطابية المهمة.

ثاني تلك الملاحظات تجسدت بـ (البساطة) التي غالبا ما يظهر بها السيد إياد علاوي في المحافل العامة والخاصة. جزء من ذلك شاهدناه أخيراً في (سيرة رجل .. سيرة وطن).

شخصيا أميل إلى مظاهر البساطة أكثر من ميلي إلى مظاهر التكلف و(البروتوكول) والطابع الرسمي الجاف المتزمت الذي يكتنفه الكثير من الافتعال في معظم الأحيان. وأعترف كذلك، بل أقدر وجهة النظر الأخرى التي تحترم وتميل إلى هذه المظاهر لما تتصف به من جدية وطقوس تفرض الهيبة والأهمية التي تحاول بسط الاحترام حتى لو بطريقة إلزامية تشبه النظام العسكري. بعد العيش الطويل في أوروبا ورؤية المسؤولين الحكوميين في الشوارع وهم يقودون حملاتهم الانتخابية، أو مشاهدتهم على شاشات التلفزيون بملابس بسيطة تتكون من بنطلون الجينز والقمصان الصيفية الهفهافة والمريحة. ومع ذلك، هم يؤدون واجباتهم الحكومية والحزبية وكل ما تتطلبه الدولة من مسؤوليات عالية بمنتهى الدقة والحزم حتى لو ارتدوا البيجاما وقمصان النوم. لا يهم أن يضع المسؤول الحكومي رجلا على رجل أو يجلس مفتوح الساقين أو يضمهما إلى بعضهما بعضاً، المهم أن يعمل جيدا ويؤدي واجبه بأمانة وإخلاص. يقول المثل العراقي الشهير: "أقعد أعوج وأحكي عدل". أقول ذلك بعد قراءتي رسالة كتبها مواطن عراقي من بانكوك أسمه (سالم المرزوك) ومن أجواء كارثة تسانومي، وهي رسالة مهمة ورصينة، ويجدر بالسيد علاوي قراءتها لما تنطوي عليه من ملاحظات صائبة من مواطن يريد المصلحة والنجاح للعراق الجديد.

اليوم تحولت الحلقة الثالثة من (سيرة رجل .. سيرة وطن) إلى اجتماع عائلي قلما يحدث أن جمعنا فيه برنامج آخر، خصوصا البرامج ذات الطابع السياسي. أجرد نفسي من هذا الحكم لأنني مدمن متابعة الأخبار والبرامج السياسية إلى درجة حصلت فيها على كراهية وبغض أفراد أسرتي الصغيرة، إذ أفرض عليهم نشرات الأخبار الكارثية المكررة وضرورة متابعتها كواجب وطني أولا وحضاري بالمرتبة الثانية، وبهمة عالية لا تقل عن همة ضابط محترف في الجيش العراقي وهو يدرب الجنود المساكين. سألني أبني ذو التسعة عشر عاما وهو يخضع لهذه الأجواء من الترقب والصمت وكأن الدنيا سوف تتغير بن لحظة وأخرى:

. من يكون هذا بابا؟ وهو يرى السيد إياد علاوي يتحدث على الشاشة:

. هذا رئيس وزراء العراق. أجبته

. السابق أم الحالي؟

. الحالي.

. يعني Goran Persson العراق؟

. نعم.

كان يعني بالطبع رئيس الحكومة العراقية كما رئيس الحكومة في السويد كي لا يقع بخطأ تحديد صفة المتحدث. لا يعرف تماما ماذا تعني صفة (رئيس الوزراء) بالعربية.

عقب انتهاء الحديث في الحلقة الثالثة التي انتهينا من مشاهدتها توا وسط عواصف من الرياح الحقيقية وليس السياسية التي تزيح صحن الستلايت عن مكانه المحسوب بدقة لتتشوه الصورة وينقطع تسلسل الحديث لثوان حرجة، وقد كان الحوار شيقا ومفيدا بكشف ملابسات مرحلة غامضة من حياة السيد إياد علاوي كثرت فيها الإشاعات بشأنه والعلاقة بالنظام في بغداد الذي كان يغذ السير نحو عملقة الدكتاتور في وضع دولي وإقليمي يبني مصالحه الضيقة على حساب أهداف ومسؤوليات وطنية وسياسية وجغرافية غاضا النظر عن شعب تزهق روحه في العراق وعن أحزاب تقدمية وديموقراطية يتم استئصالها بشكل إجرامي مريع، وشخصيات سياسية ودينية تُذبح بدم بارد من قبل زمرة من عصابة قبلية متخلفة ليس لها وازع من ضمير ولا تمت للسياسة ولا للأحزاب ولا للعقائد الفكرية أو السياسية أو الدينية بصلة، سألت زوجتي التي لم تفارق البرنامج حتى في وقت الإعلانات المزعجة:

. كيف رأيت الحديث؟

. أعادني إلى عراق السبعينيات ذكرني بأبي.

والدها هو المرحوم رشيد العارف، أعدم عام ١٩٨٣ وهو من قادة الحزب الشيوعي من الضباط القدامى في الجيش العراقي. تسلمت الأسرة حكم الإعدام بينما لم تتسلم الجثمان إلى الآن.

أعود إلى كتابة هذا المقال ولا أعرف ماذا أحذف منه لاحقا، أو هل أبعث به للنشر أصلا؟

في كل مرة يأتي فيها ذكر حزب البعث، عراقيا أم سوريا، كان يراود ذهني سؤال متعب وملح، يتعلق بالحركة الوطنية العراقية وتاريخها النضالي المعاصر:

. "ما العلاقة الحقيقية التي يرتبط بها حزب البعث العراقي بالمخابرات الغربية وفي مقدمتها جهاز المخابرات الأمريكية CIA ؟.

حدث ذلك مرارا وتكرارا، خصوصا بعد الاطلاع على مذكرات المرحوم طالب شبيب والمرحوم هاني الفكيكي وبعض المقابلات مع الرجل الغامض الباقي على قيد الحياة إلى الآن على الرغم من جميع رياح الموت التي حصدت رفاقه داخل الوطن وخارجه، السيد حازم جواد، الذي أتمنى له شخصيا طوال العمر لكونه شاهداً مهماً على تاريخ العراق وتجربة حزب البعث المدمرة في العراق وفي الوطن العربي قاطبة، ولكي يدلي بشهادته الحقيقية عن المرحلة التي قاد فيها حزب البعث في عهد حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم وخاض أخيرا في عام ١٩٦٣ في حمام دم الشيوعيين العراقيين وغيرهم من المواطنين الأبرياء.

لم يجرؤ أي بعثي إلى الآن على إفشاء العلاقة الحقيقية بالمخابرات المركزية الأمريكية، وتم تجنب الخوض في هذا المضمار من قبل جميع المسؤولين البعثيين باستثناء بعض الإشارات الضعيفة التي كانت تصدر من بعضهم بين الآونة والأخرى، سوى عبر مذكراتهم المكتوبة، أو عبر المقابلات الصحفية الشحيحة والمتباعدة التي أجريت معهم في منافيهم المتفرقة، ومنها ما قيل على لسان علي صالح السعدي عقب انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ "جئنا بقطار أمريكي" أو ما نقل عن حردان التكريتي قائد سلاح الجو العراقي بعد انقلاب ١٩٦٨ الذي لا يخرج عن معنى هذا المفهوم بشأن وصول حزب البعث إلى سدة الحكم في العراق. أولئك البعثيون الذين أسسوا أول دولة بعثية. قومية في العالم العربي الكبير وأصبحوا أنفسهم طريدي نظام الدولة التي أسسوها، شاءت لهم الأقدار أن يتم ذلك الجزاء على يد رفيق من الدرجة الثانية أو الثالثة أو العاشرة، هذا لا يهم الآن. إذ كان مجهولا وبائسا بالدرجة الكافية، على نحو ما أشار إليه السيد علاوي في أكثر من موضع في المقابلة، كما أشار إلى النقطة نفسها الكثير من السياسيين العراقيين وفي مقدمتهم البعثيون ممن عرفوا صدام عن كثب، وهو لا يتوفر على نصيب من التحصيل العلمي أو المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها أقرانه ورفاقه الآخرين، أولئك الذين سوف يذيقهم مر العذاب والحرمان والتشرد والخوف والهوان تحت دوافع غامضة وأهداف كبرى أشد غموضا.

إلى هذه الحلقة الثالثة لم يتطرق السيد إياد علاوي إلى تلك الرابطة على الرغم من الأسئلة الذكية التي يوجهها معد البرنامج السيد أيلي ناكوزي بمهارة في هذا الصدد عندما يتطرق الحديث إلى العنصر الخارجي وتأثيره على سيرة الرجل وسيرة الوطن. يتجنب السيد إياد علاوي الخوض في هذه التفاصيل الدولية التي من خلال إطلاعه عليها تسهم في كشف الحقائق والوقائع التي يحتاج إليها المواطن العراقي بالدرجة الأولى ومن ثم المواطن العربي لمعرفة الحقيقة التي كان حزب البعث يخدع بها الجماهير العربية فيما يخص أهداف تحرير فلسطين والوحدة العربية والرسالة الخالدة، إلى آخر هذه الأكاذيب والتلفيقات التي تقرب من الإعلام السطحي أكثر من التنظير العقائدي، الأمر الذي أكتشفه السيد إياد علاوي مبكرا وفض نفسه وعضويته من حزب البعث العربي الاشتراكي أواسط السبعينيات جراء اكتشافه عدم معاصرة الحزب التطورات السياسية والفكرية وتخلفه عن مواكبة تلك التطورات في العالم.

أوضح السيد إياد علاوي في الحلقة الأولى من (سيرة رجل.. سيرة وطن) المستوى العقائدي الذي يؤمن به الأفراد المنضوون تحت راية حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، ولخصه بما يأتي: "السيطرة على الحكم بهدف زيادة ألوية الجيش العراقي من خمسة أو ستة إلى أحد عشر لواء في سبيل القضاء على إسرائيل". وبغض النظر عن النيا الطيبة للبعثيين العراقيين الذين صدقوا هذه المزاعم، في الوقت الذي كانت فيه المخابرات المركزية الأمريكية تجند عناصرها لصيد الفرسان العرب الذين يريدون إزالة إسرائيل من على الخريطة ورمي اليهود في البحر، كان الرفاق في القيادات العليا مشرفين على تقديم هذه الذبائح الوطنية والقومية الحقيقية لهم، صدام وزمرته ومن سبقه في قيادة حزب البعث في العراق بطبيعة الحال. لم يعد هنالك من (يستحي) من تعامله مع الأمريكيين في العصر الراهن. بل يجرى العكس من ذلك سواء بالمظهر أم بالجوهر. لا أجد خطأ في ذلك. تلك هي أساليب من السياسة كان يجب عدم إغفالها تحت وطأة النظريات العقائدية التي تبنتها الأحزاب اليافعة في العراق، وابتلت بها المجتمعات المتخلفة في العالم الثالث، ومن ثم قادتها تلك الأحزاب بعقائدها الجوف إلى ما هي عليه الآن من التخلف العلمي والتكنولوجي والفكري والاجتماعي على مختلف الصعد. فرضت الحرب الباردة بين القطبين الجبارين كتلة الاتحاد السوفييتي الاشتراكية الشيوعية وكتلة المعسكر الغربي بقيادة زعيمة الرأسمالية في مراحلها الإمبريالية الولايات المتحدة الأمريكية، فرضت قيماً وأخلاقاً عدها الطرف الضعيف قيماً ثورية نبيلة تتشابه إلى حد بعيد مع القيم الاجتماعية لبلدان العالم الثالث القبلية منها والعشائرية. لذا كانت الأحزاب والانتماء إليها تتشابه كثيرا، وتجسد المفاهيم الروحية لمعنى هذا الانتماء لهذا الحزب وسمو هذا الحزب وسمو أفكاره، وبالتالي سمو التضحية بالمال والحلال والروح في سبيله. وكل هذا مجرد خطأ، بل هو هراء بالمعنى السياسي. لماذا الموت في سبيل حزب أو فكرة أو عقيدة من المفترض أن تقدم لي الحرية والسعادة والرفاهية الاجتماعية والمستوى الاقتصادي اللائق حسب عملي ومهاراتي وخبرتي وشهادتي العلمية. بيد أن هذه الأفكار التي نكتبها ببساطة ووضوح الآن لم تكن، ولم يكن ومن الناس ليجرؤ على كتابتها بسهولة من دون تعريض نفسه للموت حتى إن كان من أخلص البشر لخدمة الإنسانية. فعندما يتحول الصراع بين البشر إلى صراع كوني يتحكم فيه قطبان جباران وفيه أسلحة دمار شامل وترسانات ورؤوس نووية وقنابل ذرية وأخرى هيدروجينية، لا يعود الكلام غير ذي أهمية في عملية الصراع الكوني البارد على السطح، الذي يغلي تحت البساط.

لذا حين يصنف السيد إياد علاوي، وهو البعثي العراقي القديم، حزبا عراقياً وطنيا عريقاً كالحزب الشيوعي، لا ينتبه لثقافته السياسية بقدر ما ينقاد إلى فطرته وبديهته التي تكره (الشيوعية) بوصفها خطرا على العالم وبالتالي هي بالتأكيد خطر على بلده وعلى مجتمعه. وهو يتحدث عن ذلك بسلاسة واضحة ليس فيها قصد الإساءة بقدر ما فيها من مفاهيم وآثار حقبة الحرب الباردة التي تبلورت فيها عقائدية وذهنية السياسي العراقي القومي الشاب حينذاك. فيقول لمحدثه: "كانت هناك مخاطر كبيرة حينذاك.. منها الخطر الصهيوني والشيوعية"

ليس المقصود تعريض السيد إياد علاوي بالشيوعيين العراقيين، فقد تجاوز هذه المرحلة بالتأكيد، وأكاد أجزم أنه لن يضع أي مواطن عراقي في السجن بسبب معتقده الحزبي أو الديني أو السياسي. وهذا نابع من تجربته الحزبية في العراق، وبالتالي من ملامسته الوضع السياسي في لبنان وسورية حيث كان قادة الأحزاب الوطنية من قوميين وشيوعيين وما بينهم يجلسون في مقهى واحد يجادل بعضهم الآخر على الرغم من الفارق الشاسع بين مفاهيمهم الفكرية والعقائدية والحزبية. كتب المرحوم هاني الفكيكي العضو القيادي في البعث العراقي في الستينيات، عن هذا المشهد عندما رأى ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث يجلس مع خالد بكداش السكرتير العام للحزب الشيوعي السوري وزكي الأرسوزي وصلاح البيطار، وهم من القادة القوميين في سوريا، يجلسون ويتحاورون بشكل يختلف تماما عما هي عليه الحال في العراق، الأكثر عنجهية والأكثر ضراوة والأقل رحابة فكرية والأقل ثقة بنفسه وبالآخرين.

لا يجب على السيد علاوي الخجل من فضح علاقة حزب البعث. جناح العراق بالمخابرات الأمريكية. كانت تلك العلاقة السابقة، وتعميما لجميع الحكومات العربية، تعتمد على معادلة الصراع العربي. الصهيوني، وكانت تستند بشكل كبير إلى أسس ومرتكزات الحرب الباردة. وقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تقود المجتمع الغربي الأوروبي إلى تحطيم المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفييتي وتفتيته وإرجاع الدول المكونة له إلى أصولها الأولية القديمة.

الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، بغض النظر عن ظروف تكوينهما والدوافع التي تكمن وراء ذلك، يقع الدور الرئيس لهما في كونهما أعضاء في لعبة الحرب الباردة في أوج نشاطهما الجماهيري والعقائدي والفكري بعد الحرب العالمية الثانية حتى الإعلان الرسمي عن سقوط المعسكر الاشتراكي عام ١٩٨٩ بتحطيم جدار برلين بين شطري القارة الأوروبية الشرقي والغربي.

لماذا لا يخجل أسامة بن لادن من تاريخه وهو (العميل رقم واحد) للمخابرات المركزية الأمريكية حين جندته في حربها ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان أيام الحرب الباردة وها هو أضحى (العدو رقم واحد) بالنسبة لها؟ كان ذلك مقبولا من قبل الأحزاب العقائدية، على الأخص الدينية منها والقومية المتطرفة، التي فرضت عليها أجواء الحرب الباردة الاصطفاف مع التوجهات العامة للستراتيجية الأمريكية في حربها الكونية السرية مع الاتحاد السوفييتي.

لا نعرف حقاً فيما إذا كانت الحلقات قد سُجلت كاملة مع السيد رئيس الوزراء العراقي لكي نلفت انتباهه إلى التطرق لمثل هذه النقاط الحساسة من تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق. ولاسيما أن تراث هذا الحزب بات ملكا للشعب العراقي وللدارسين بعد التجربة المرة والقاسية التي تعرض فيها المجتمع العراقي إلى مثل هذا الخط الدموي من أنظمة الحكم.

لا يوجد ما يخجل أو يشين البعثيين الشرفاء الذين طالتهم طاحونة الموت والقتل والإهانة والإذلال كما طالت جميع فئات شعبهم ومواطنيهم. أخلاق (الحثالة) في حزب البعث أرادت إزاحة أخلاق (النخبة) في المجتمع العراقي. بيد أنه من المفيد إيضاح الجوانب المهمة للثمن الذي دفعه الشعب العراقي بسبب تسلط صدام حسين حاكماً دكتاتوراً بمساندة الغرب. كان الغرب يصفق لصدام حسين وهو يذبح العراقيين وغيرهم. لماذا كان الغرب يصفق لصدام حسين منذ مطلع السبعينيات إلى أواخر الثمانينيات التي انتهت بغزو الكويت؟

أين تكمن الأجوبة الشافية المتأخرة لضماد جروح الشعب العراقي في سبيل عدم تكرار مثل هذه المأساة مرة أخرى؟

أسئلة نترك للسيد إياد علاوي الإجابة عليها عندما تحين الفرص.